الـمحاضرة الأولى

مدخـــل إلى البحث التوثيقي

1. مفهوم البحث التوثيقي :

إن أول استعمال لكلمة " التوثيق" كان سنة 1870حيث كان هذا المفهوم يعنى " البحث عن الوثائق لإنجاز دراسة أو مذكرة". لقد بقي هذا المفهوم سائدا حتى حوالي سنة 1930حيث أصبح التوثيق يعني " الاستغلال المنهجي للمعلومات، كما جرى تعريف التوثيق من طرف الفيدرالية الدولية للتوثيق FID على أنه يتجلى في جمع، ترتيب، انتقاء، بث، واستعمال كل أنواع المعلومات. فهو فن وعلم تنظيم المعلومات، والتحكم فيها.

يعرف البحث التوثيقي أنه: " كل عملية أو إجراء منظم، قائم على التحقق والتعرف والمطابقة والمقارنة وكذا يسمح باسترجاع ومعاينة ومعاجلة البيانات والعناصر المتعلقة بمجال البحث المطلوب (أرقام، نصوص، بيبليوغرافيات...)، و هذه العملية يجب أن تكون متعلقة بالموضوع والا تخرج عنه، كما يستوجب أن تكون الدراسة وافية وشاملة قدر الإمكان .كما يعرف على أنه: عملية إيجاد الوثائق التي لها علاقة وطيدة بالمجال والموضوع المقصود، ضمن أدوات البحث المتوفرة، ومن ثم تقييمها وتحليلها واستخدامها.

وعليه فالبحث التوثيقي هو: جملة من الخطوات المنهجية التي يتبعها الباحث في سبيل الوصول إلى المعلومات التي تنقصه، أو للإجابة عن أسئلة كانت تراوده، مستعينا بكل المصادر المتاحة أيا كان شكلها، والوسائل والطرق التي تسمح له بالاطلاع أكثر عن المعلومات وتصفيتها، ومن ثم استخدامها واستثمارها، لإثبات معلومة وبرهنتها بالأدلة الدامغة، أو التحقق من فكرة أو نفيها أو حتى اكتشاف معارف جديدة.

2. نشأة البحث التوثيقي :

تعود جذور البحث الوثائقي وتطوره إلى عصور قديمة، وتطور مع تطور المصادر والأوعية الحاوية للمعلومات، فحيثما كانت تتواجد هذه الأخيرة مخزنة كان هناك من يبحث عنها، وتثبت الدراسات والأبحاث أن أدوات البحث الوثائقي الأولى كانت على شكل ألواح طينية، تلك التي عثر عليها في مكتبات بلاد ما بين النهرين، وقد كانت عبارة عن فهارس تحتوي معلومات بيبليوغرافية، قصد الرجوع إليها عند الحاجة، كما عثر على البرديات والقرطاسيات واللفائف التي كان البحث فيها يتم أبجديا بالموضوعات أو المؤلفين أو زمنيا، و التي رتبت بفضل كاليماخوس " Callimachus"أمين مكتبة الإسكندرية، هذه الأخيرة التي ضمت تراث البحر الأبيض المتوسط وبلاد الهند ، و أهم الباحثين الذين كانوا يرتادونها هم الفلاسفة أو الأطباء أو علماء الفلك .ولدى العرب، كان البحث الوثائقي يتم في المكتبات ودور الوراقة، ولجأ الباحثون إلى أدوات ومؤلفات كانت تحصي العلوم و تدون المواضيع على شكل أبواب وتبين المؤلفين وأعمالهم، نذكر على سبيل المثال كتاب الفهرست لابن النديم ، وفي القرن السادس عشر أنتج العلماء

المسلمون أعمالا قيمة تعد من أدوات البحث المفيدة لكل ابحث من أمثلتها كتاب " كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون" لحاجي خليفة، وكتاب "مفتاح السعادة ومصباح السيادة" لطاش كبرى زادة .

في العصر الحديث، ظهرت اهتمامات البحث الوثائقي في أوروبا، وتأثرت وتطورت مع ظهور الطباعة 1440 ،ومن ثم بدأ الاهتمام بالقوائم البيبليوغرافية خاصة بعد الثورة الفرنسية عندما تم إنشاء أول مصلحة وطنية للبيبليوغرافية، بعدما تم تأميم الوثائق والمصادر التي تملكها الجمعيات الدينية ومكتبات الأديرة وأملاك المهاجرين، كل هذه الوثائق وضعت في مستودعات ضخمة لتسهيل عملية البحث والاسترجاع فيما بعد .ومن ثم حدثت نقلة جديدة في مجال البحث الوثائقي، وذلك عندما وضع "ملفل ديوي" سنة 1876 تصنيفا عمليا بمفهومه الحديث ، وبمقتضاه تم التخلص من الترميز الحرفي والهجائي للوثائق ومصادر المعلومات، وحلت لغة وثائقية جديدة محل القديمة.

في التسعينات من القرن الماضي ، شكلت الأنترنيت تحولا في عامل المعلومات وخدماتها، كما ساهمت شبكة الويب Webبعد ظهورها وانتشارها في تسهيل عمليات البحث الوثائقي وجعلها أكثر فعالية، و من هنا أخذت المواقع المتخصصة ومحركات البحث والمحركات المتعددة moteur-Méta و الأدلة في الانتشار والتوسع .....ونحن نعيش اليوم حقبة جديدة من حقب المعلومات، أين يبدأ الحديث عن الويب 2.0 الذي انطلق منذ سنة 2004 و من ثم الجيل الجديد للأنترنيت 3.0 والويب الدلالي Semantique والتفاعلي، والذي من منتجاته وخدماته جند قواعد المعلومات النصية خلاصات- RSS - المدونات أو - Blogs الشبكات الاجتماعية networks social ،ولعل على رأسها شبكة فايسبوك، التي هي ظاهرة من ظواهر العصر، ومع كل الخصائص التشاركية والتفاعلية والسرعة والفعالية التي أتت بها، أصبح من الصعب تجنب استعمالها، وكلما أثرت المعلومات وخدماتها بالتطورات، يتأثر البحث التوثيقي بتغير أنماطه وتقنياته، وتحول الباحث من مجرد متصفح للمعلومات إلى صانع، و مدون، وناقد لها، وبالإضافة إلى البحث بالكلمات المفتاحية أصبحت العملية تتم من خلال Tag الذي قد يكون بديلا شائعا في أوساط الجيل الجديد عن الكلمات المفتاحية، كما تشهد هذه الحقبة فكرة العودة إلى اللغة الطبيعية من خلال النظم الخبيرة والذكاء الاصطناعي.

3. أنواع البحث التوثيقي :

هناك نوعين من البحث الوثائقي تقليدي وآلي يستخدمهما الباحث للوصول إلى المعلومات:

أ. **البحث الوثائقي التقليدي :** تكون عملية البحث عن الوثائق في هذا النوع عن طريق البحث والتفتيش الذاتي في أدلة مصادر المعلومات التي توفرها المكتبة للمستفيد من أجل أن يصل المستفيد إلى الوثيقة التي هو بحاجة إليها والتي تخدم إشكاليته وموضوع بحثه أو دراسته عن طريق وسائل البحث المختلفة المتوفرة على مستوى المكتبة مثل الفهارس والكشافات والمستخلصات والأدلة ومختلف وسائل البحث التي يمكن الاستعانة بها.

ب. **البحث الوثائقي الآلي** : وهو البحث الذي يستخدمه الباحث في البحث عن الوثيقة وذلك باستخدام تجهيزات حديثة مثل الحاسب الآلي أو باستخدام نظام برمجي أو بواسطة الشبكات مستعينا بأدوات البحث عن الوثائق والتي تختلف تماما عن تلك المتوفرة في بيئة المكتبات مثل قواعد المعلومات، محركات البحث، الفهارس على الخط المباشر، المكتبات الرقمية، الأدلة الموضوعية ....الخ.

4. مستويات البحث الوثائقي:

يمكن أن نجد ضمن تصنيفات تقنيات البحث الوثائقي عدة مستويات، حسب العمق الذي يرغب الباحث الوصول إليه في مجال تخصصه، فأحيانا لا يتعدى الأمر المستوى المفاهيمي فقط، وأحيانا أخرى يكون على الباحث أن يتعمق أكثر للوصول إلى أدق التفاصيل وأحدث التطورات الحاصلة، ويتوقف مستوى البحث أحيانا على صفة الواصفات المستخدمة، فقد يستخدم الباحث الواصفات البسيطة أو المركبة حسب الحاجة لذا نجد المستويات التالية:

أ- البحث الوثائقي البسيط :

يمكن أن نطلق اسم البحث البسيط على ذلك الذي لا يستخدم إلا الواصفات، والكلمات المفتاحية البسيطة – كلمة أو اثنتين على الأكثر- .

ب- البحث الوثائقي – العميق- المركب :

يسمح البحث الوثائقي المركب بالتعمق أكثر في البيانات والمعلومات باستخدام تقنيات مختلفة كالبحث المتقدم والأكثر عمقا لتخصيص النتائج وتصفيتها حتى تكون أكثر دقة،

ت- البحث الوثائقي التفاعلي :

من الواضح للعيان أن الدور الأبرز الذي يلعبه الجيل الجديد للأنترنيت هو عنصر التفاعل، واشراك المتصفح في إنتاج المعرفة، والبروز كعنصر فعال يناقش ويتفاعل مع مجتمعات مختلفة في فضاءات افتراضية، وهذا ما يؤثر بصفة مباشرة في فلسفة ومنهجية البحث الوثائقي في البيئة الإلكترونية الجديدة والمتجددة، فأصبح هو بدوره تفاعليا، وهنا يبرز دور الذكاء الجماعي الذي يعد ظاهرة بحد ذاتها تستحق الوقوف لبرهة، إذ أصبح الويب الجديد من أهم منصات خلق معارف جماعية تنتج من تكاثف جهود وخبرات مختلفة، فلم تعد شبكة الأنترنيت للقراءة والبحث فقط، إنما هو للقراءة والكتابة، والنشر، والمناقشة، وتبادل الأفكار والخبرات المتراكمة، ومع الأعداد الهائلة للمستخدمين عبر العالم، يمكن تخيل الكم الهائل من البيانات التي يمكن الاطلاع عليها ومشاركتها مع ذوي الاهتمامات المتشابهة، ويمكن هنا أن تبرز الجماعات ذات الاهتمامات المشتركة على الويب من خلال المدونات Blogs أو جماعات النقاش والعمل.